تفسير سورة فاطر

هى خمس وأربعون آية . وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج البخارى وابن الضريس وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت سورة فاطر بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ .

الفطر : الشقّ عن الشىء ، يقال : فطرته فانفطر ، ومنه : فطر ناب البعير: إذا طلع فهو بعير فاطر ، وتفطر الشىء : تشقق، والفطر : الابتداء والاختراع ، وهو المراد هنا ، والمعنى : ﴿الحمد لله ﴾ مبدع ﴿ السموات والأرض ﴾ ومخترعهما ، والمقصود من هذا : أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم فهو قادر على الإعادة . قرأ الجمهور : ﴿ فاطر ﴾ على صيغة اسم الفاعل ، وقرأ الزهرى والضحاك : « فطر » على صيغة الفعل الماضى ، فعلى القراءة الأولى هو نعت لله ؛ لأن إضافته محضة لكونه بمعنى الماضى، وإن كانت غير محضة كان بدلا ، ومثله : ﴿جاعل الملائكة رسلا﴾ يجوز فيه الوجهان ، وانتصاب ﴿ رسلا ﴾ بفعل مضمر على الوجه الأوّل ؛ لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضى لا يعمل ، وجوّز الكسائى عمله . وأما على الوجه الثانى ، فهو منصوب بجاعل ، والرسل من الملائكة : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل . وقرأ الحسن : « جاعل » بالرفع . وقرأ جليل بن نشيط ويحيى بن يعمر : « جعل » على صيغة الماضى . وقرأ الحسن وحميد : « رُسْلا » بسكون السين ، وهى لغة تميم ﴿ أولى

أجنحة ﴾ صفة لـ ﴿ **رسلا** ﴾ . والأجنحة جمع جناح ﴿ **مثنى وثلاث ورباع** ﴾ صفة لأجنحة . وقد تقدّم الكلام فى مثنى وثلاث ورباع فى النساء . قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ويعرجون بها من الأرض إلى السماء. قال يحيى بن سلام : يرسلهم الله إلى الأنبياء . وقال السدّى : إلى العباد بنعمه أو نقمه . وجملة: ﴿ **يزيد فى الخلق ما يشاء** ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة، والمعنى: أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء . وهو قول أكثر المفسرين ، واختاره الفراء والزجاج . وقيل : إن هذه الزيادة فى الخلق غير خاصة بالملائكة ، فقال الزهرى وابن جرير : إنها حسن الصوت. وقال قتادة: الملاحة فى العينين والحسن فى الأنف والحلاوة فى الفم . وقيل : الوجه الحسن . وقيل: الخط الحسن. وقيل : الشعر الجعد . وقيل : العقل والتميز . وقيل : العلوم والصنائع . ولاوجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة . وجملة : ﴿ **إن الله على كل شىء قدير** ﴾ تعليل لما قبلها من أنه يزيد فى الخلق ما يشاء .

﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها** ﴾ أى ما يأتيهم الله به من مطر ورزق لا يقدر أحد أن يمسكه ﴿ **وما يمسك** ﴾ من ذلك لا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه . وقيل : المعنى : إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله . وقيل : هو الدعاء . وقيل : التوبة . وقيل : التوفيق والهداية . ولا وجه لهذا التخصيص ، بل المعنى: كل ما يفتحه الله للناس من خزائن رحمته فيشمل كل نعمة أنعم الله بها على خلقه، وهكذا الإمساك يتناول كل شىء يمنعه الله من نعمه ، فهو سبحانه المعطى المانع القابض الباسط لا معطى سواه ولا منعم غيره . ثم أمر الله سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التى لا تعدّ ولا تحصى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ومعنى هذا الأمر لهم بالذكر: هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها وطلب المزيد منها ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾: « من » زائدة ، و﴿**خالق**﴾ مبتدأ ، و ﴿ غير الله ﴾ صفة له . قال الزجاج : ورفع غير على معنى : هل خالق غير الله ؟ لأن «من» زيادة مؤكدة، ومن خفض «غير» جعلها صفة على اللفظ. قرأ الجمهور برفع : ﴿**غير**﴾ وقرأ حمزة والكسائى بخفضها ، وقرأ الفضل بن إبراهيم بنصبها على الاستثناء . وجملة : ﴿**يرزقكم من السماء والأرض**﴾ خبر المبتدأ . أو جملة مستأنفة أو صفة أخرى لخالق ، وخبره محذوف . والرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات وغير ذلك ، وجملة : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ مستأنفة لتقرير النفى المستفاد من الاستفهام ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ من الأفك بالفتح وهو الصرف ، يقال : ما أفكك عن كذا ، أى ما صرفك ، أى فكيف تصرفون ؟ وقيل : هو مأخوذ من الإفك بالكسر ، وهو الكذب ؛ لأنه مصروف عن الصدق . قال الزجاج : أى من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله والبعث وأنتم مقرون بأن الله خلقكم ورزقكم ؟

ثم عزى الله سبحانه نبيه ﷺ فقال : ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك** ﴾ ليتأسى بمن قبله من الأنبياء ويتسلى عن تكذيب كفار العرب له ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ لا إلى غيره فيجازى كلا بما يستحقه . قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصن وحميد والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : « ترجع » بفتح الفوقية على البناء للفاعل . وقرأ الباقون بضمها على البناء للمفعول. ﴿ **يأيها الناس إن وعد الله حق** ﴾ أى وعده بالبعث والنشور والحساب والعقاب والجنة والنار ،كما أشير إليه بقوله : ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾. ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا** ﴾ بزخرفها ونعيمها. قال سعيد بن جبير: غرور الحياة الدنيا : أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول : ﴿ يا ليتنى قدّمت لحياتى ﴾ [الفجر : ٢٤] . ﴿ **ولا يغرّنكم بالله الغرور** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الغين ، أى المبالغ فى الغرور ، وهو الشيطان . قال ابن السكيت وأبو حاتم : الغرور : الشيطان ، ويجوز أن يكون مصدرًا، واستبعده الزجاج؛ لأن غر به متعدى ومصدر المتعدى إنما هو على فعل نحو: ضربته ضربًا ، إلا فى أشياء يسيرة معروفة لا يقاس عليها ، ومعنى الآية : لا يغرنكم الشيطان بالله فيقول لكم : إنّ الله يتجاوز عنكم ويغفر لكم لفضلكم أو لسعة رحمته لكم . وقرأ أبو حيوة وأبو سماك ومحمد بن السميقع بضم الغين ، وهو الباطل . قال ابن السكيت: والغرور بالضم : ما يغرّ من متاع الدنيا . وقال الزجاج : يجوز أن يكون الغرور جمع غار ، مثل قاعد وقعود . قيل: ويجوز أن يكون مصدر غرّه كاللزوم والنهوك، وفيه ما تقدّم عن الزجاج من الاستبعاد.

ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان فقال : ﴿ **إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّا** ﴾ أى فعادوه بطاعة الله ولا تطيعوه فى معاصى الله . ثم بين لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم فقال : ﴿ **إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ أى إنما يدعو أشياعه وأتباعه والمطيعين له إلى معاصى الله سبحانه لأجل أن يكونوا من أهل النار ، ومحل الموصول فى قوله : ﴿ **الذين كفروا لهم عذاب شديد** ﴾ الرفع على الابتداء ﴿ **لهم عذاب شديد** ﴾ خبره ، أو الرفع على البدل من فاعل ﴿ **يكونوا** ﴾ أو النصب على البدل من ﴿ **حزبه** ﴾ أو النعت له ، أو إضمار فعل يدل على الذمّ ، والجرّ على البدل من أصحاب ، أو النعت له . والرفع على الابتداء أقوى هذه الوجوه؛ لأنه سبحانه بعد ذكر عداوة الشيطان ودعائه لحزبه ذكر حال الفريقين من المطيعين له والعاصين عليه ، فالفريق الأوّل قال : ﴿ **لهم عذاب شديد** ﴾ والفريق الآخر قال فيه : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ أى يغفر الله لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، ويعطيهم أجرًا كبيرًا وهو الجنة .

﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من ذكر التفاوت بين الفريقين ، و « من» فى موضع رفع بالابتداء وخبره محذوف. قال الكسائى : والتقدير : ذهبت نفسك عليهم حسرات . قال: ويدل عليه قوله: ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾ قال : وهذا كلام عربىّ ظريف لا يعرفه إلا القليل، وقال الزجاج : تقديره : كمن هداه ، وقدرّه

غيرهما : كمن لم يزين له ، وهذا أولى لموافقته لفظا ومعنى ، وقد وهم صاحب الكشاف ، فحكى عن الزجاج ما قاله الكسائى . قال النحاس : والذى قاله الكسائى أحسن ما قيل فى الآية لما ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى : أن الله عزّ وجل نهى نبيه ﷺ عن شدّة الاغتمام بهم والحزن عليهم ، كما قال : ﴿ فلعلك باخع نفسك﴾ [الكهف : ٦] . وجملة : ﴿ **فإن الله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ مقررّة لما قبلها ، أى يضلّ من يشاء أن يضله ويهدى من يشاء أن يهديه ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الفوقية والهاء مسندا إلى النفس ، فتكون من باب : لا أرينك ها هنا . وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن محيصن والأشهب بضم التاء وكسر الهاء ، ونصب ﴿ **نفسك** ﴾ وانتصاب ﴿ **حسرات** ﴾ على أنه علة ، أى للحسرات ، ويجوز أن ينتصب على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر كما روى عن سيبويه . وقال المبرد : إنها تمييز . والحسرة : شدّة الحزن على ما فات من الأمر ﴿**إن الله عليم بما يصنعون** ﴾ لايخفى عليه من أفعالهم وأقوالهم خافية، والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد .

وقد أخرج أبو عبيد فى فضائله ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، يقول : ابتدأتها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال : ﴿**فاطر السموات** ﴾ : بديع السموات . وأخرج ابن المنذر عنه أيضًا فى قوله: ﴿ **يزيد فى الخلق ما يشاء**﴾ قال : الصوت الحسن . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة** ﴾ الآية قال: ما يفتح الله للناس من باب توبة ﴿ **فلا ممسك لها**﴾ هم يتوبون إن شاؤوا وإن أبوا ، وما أمسك من باب توبة ﴿ **فلا مرسل له من بعده** ﴾ وهم لايتوبون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم فى الآية قال : يقول : ليس لك من الأمر شيء . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: ﴿ **لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ قال : كل شيء فى القرآن لهم مغفرة وأجر كبير ، ورزق كريم فهو الجنة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة والحسن فى قوله : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله** ﴾ قال : الشيطان زين لهم ،هى والله الضلالات ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾ أى لا تحزن عليهم .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي

الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ .

ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه وعظيم قدرته ؛ ليتفكروا فى ذلك وليعتبروا به ، فقال : ﴿ **والله الذى أرسل الرياح** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **الرياح** ﴾ وقرأ ابن كثير وابن محيصن والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى : « الريح » بالإفراد ﴿ **فتثير سحابا** ﴾ جاء بالمضارع بعد الماضى استحضارا للصورة ؛ لأن ذلك أدخل فى اعتبار المعتبرين ، ومعنى كونها تثير السحاب: أنها تزعجه من حيث هو ﴿ **فسقناه إلى بلد ميت** ﴾ قال أبو عبيدة: سبيله : فتسوقه ؛ لأنه قال : ﴿ **فتثير سحابا** ﴾ . قيل : النكتة فى التعبير بالماضيين بعد المضارع : الدلالة على التحقق . قال المبرد : ميت وميّت واحد ، وقال هذا قول البصريين ، وأنشد :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

﴿ **فأحيينا به الأرض** ﴾ أى أحيينا بالمطر الأرض بإنبات ما ينبت فيها ، وإن لم يتقدّم ذكر المطر فالسحاب يدل عليه، أو أحيينا بالسحاب ؛ لأنه سبب المطر ﴿ **بعد موتها** ﴾ أى بعد يبسها ، استعار الإحياء للنبات والموت لليبس ﴿ **كذلك النشور** ﴾ أى كذلك يحيى الله العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها . والنشور: البعث ، من نشر الإنسان نشورا ، والكاف فى محل رفع على الخبرية ، أى مثل إحياء موات الأرض إحياء الأموات ، فكيف تنكرونه وقد شاهدتم غير مرّة ما هو مثله وشبيه به ؟

﴿ **من كان يريد العزة** ﴾ قال الفرّاء : معناه: من كان علم العزة لمن هى ؟ فإنها لله جميعا. وقال قتادة : من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله ، فجعل معنى فللّه العزّة : الدعاء إلى طاعة من له العزّة ، كما يقال : من أراد المال فالمال لفلان ، أى فليطلبه من عنده . وقال الزجاج : تقديره : من كان يريد بعبادة الله العزّة ، والعزّة له سبحانه، فإن الله عزّ وجل يعزه فى الدنيا والآخرة . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **من كان يريد العزّة** ﴾ : المشركون ، فإنهم كانوا يتعزّزون بعبادة الأصنام : كقوله : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّا ﴾ [مريم : ٨١] . وقيل : المراد : الذين كانوا يتعزّزون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزّة ﴾ الآية [النساء :١٣٩] . ﴿ **فلله العزّة جميعا** ﴾

أى ، فليطلبها منه لا من غيره ، والظاهر فى معنى الآية : أن من كان يريد العزّة ويطلبها فليطلبها من الله عزّ وجلّ، فلله العزّة جميعًا ، ليس لغيره منها شىء، فتشمل الآية كل من طلب العزّة ، ويكون المقصود بها : التنبيه لذوى الأقدار والهمم من أين تنال العزّة ، ومن أىّ جهة تطلب ؟

﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ أى إلى الله يصعد لا إلى غيره ، ومعنى صعوده إليه : قبوله له، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف ، وخص الكلم الطيب بالذكر؛ لبيان الثواب عليه ، وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيبا من ذكر الله ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وتلاوة وغير ذلك ، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد ، أو بالتحميد والتمجيد . وقيل : المراد بصعوده : صعوده إلى سماء الدنيا . وقيل : المراد بصعوده: علم الله به ، ومعنى ﴿ **والعمل الصالح يرفعه** ﴾ : أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، كما قال الحسن وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبو العالية والضحاك ، ووجهه : أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح . وقيل : إن فاعل ﴿**يرفعه** ﴾ هو ﴿ **الكلم الطيب** ﴾ ومفعوله : ﴿ **العمل الصالح** ﴾ . ووجهه : أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان . وقيل : إن فاعل ﴿ **يرفعه** ﴾ ضمير يعود إلى الله عزّ وجل . والمعنى : أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب ؛ لأن العمل يحقق الكلام . وقيل : والعمل الصالح يرفع صاحبه، وهو الذى أراد العزّة. وقال قتادة : المعنى : أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه ، أى يقبله ، فيكون قوله :﴿ **والعمل الصالح** ﴾ على هذا مبتدأ خبره: ﴿ **يرفعه** ﴾ ، وكذا على قول من قال : يرفع صاحبه. قرأ الجمهور : ﴿ **يصعد** ﴾ من صعد الثلاثى ﴿ **والكلم الطيب** ﴾ بالرفع على الفاعلية. وقرأ على ابن مسعود : «**يصعد** » بضم حرف المضارعة من أصعد «والكلم الطيب» بالنصب على المفعولية ، وقرأ الضحاك على البناء للمفعول . وقرأ الجمهور: ﴿ **الكلم** ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن: « الكلام » . وقرأ الجمهور : ﴿ **والعمل الصالح** ﴾ بالرفع على العطف أو على الابتداء . وقرأ ابن أبى عبلة وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال. ﴿ **والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد** ﴾ انتصاب ﴿ **السيئات** ﴾ على أنها صفة لمصدر محذوف، أى يمكرون المكرات السيئات وذلك؛ لأن « مكر »لازم ، ويجوز أن يضمن يمكرون معنى يكسبون ، فتكون : ﴿**السيئات** ﴾ مفعولا به . قال مجاهد وقتادة : هم أهل الرياء . وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبىّ ﷺ لما اجتمعوا فى دار الندوة . وقال الكلبى : هم الذين يعملون السيئات فى الدنيا . وقال مقاتل : هم المشركون ، ومعنى ﴿ **لهم عذاب شديد** ﴾ : لهم عذاب بالغ الغاية فى الشدّة ﴿ **ومكر أولئك هو يبور** ﴾ أى يبطل ويهلك، ومنه: ﴿ وكنتم قوما بورًا ﴾ [الفتح: ١٢]. والمكر فى الأصل: الخديعة والاحتيال ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الذين مكروا السيئات على اختلاف الأقوال فى تفسير مكرهم، وجملة : ﴿ **يبور** ﴾ خبر مكر أولئك .

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على البعث والنشور فقال : ﴿ **والله خلقكم من تراب** ﴾ أى خلقكم ابتداء فى ضمن خلق أبيكم آدم من تراب . وقال قتادة : يعنى آدم ، والتقدير على هذا : خلق أباكم الأوّل ، وأصلكم الذى ترجعون إليه من تراب ﴿ **ثم من نطفة** ﴾ أخرجها من ظهر آبائكم ﴿ **ثم جعلكم أزواجًا** ﴾ أى زوج بعضكم ببعض ، فالذكر زوج الأنثى ، أوجعلكم أصنافا ذكرانا وإناثا ﴿ **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ أى لا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به ، فلا يخرج شىء عن علمه وتدبيره ﴿ **وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب** ﴾ أى ما يطول عمر أحد ، ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، أى فى اللوح المحفوظ . قال الفراء : يريد آخر غير الأوّل ، فكنى عنه بالضمير كأنه الأوّل ؛ لأن لفظ الثانى لو ظهر كان كالأوّل كأنه قال : ولا ينقص من عمر معمر ، فالكناية فى عمره ترجع إلى آخر غير الأوّل ، ومثله قولك: عندى درهم ونصفه ، أى نصف آخر . قيل : إنما سمى معمرا باعتبار مصيره إليه. والمعنى : وما يمدّ فى عمر أحد ولا ينقص من عمر أحد ، لكن لا على معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائدا ، بل على معنى أنه لا يجعل من الابتداء ناقصا إلا وهو فى كتاب . قال سعيد ابن جبير : وما يعمر من معمر إلا كتب عمره : كم هو سنة ، كم هو شهرا ، كم هو يوما ، كم هو ساعة ؟ ثم يكتب فى كتاب آخر: نقص من عمره ساعة ، نقص من عمره يوم ، نقص من عمره شهر ، نقص من عمره سنة حتى يستوفى أجله ، فما مضى من أجله فهو النقصان ، وما يستقبل . فهو الذى يعمره . وقال قتادة : المعمر من بلغ ستين سنة ، والنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة . وقيل : المعنى : إن الله كتب عمر الإنسان كذا إن أطاع ، ودونه إن عصى فأيهما بلغ فهو فى كتاب . والضمير على هذا يرجع إلى معمر . وقيل : المعنى : وما يعمر من معمر إلى الهرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا فى كتاب ، أى بقضاء الله ، قاله الضحاك ، واختاره النحاس . قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل ، والأولى أن يقال : ظاهر النظم القرآنى أن تطويل العمر وتقصيره، هما بقضاء الله وقدره لأسباب تقتضى التطويل وأسباب تقتضى التقصير . فمن أسباب التطويل : ما ورد فى صلة الرّحم عن النبى ﷺ ونحو ذلك . ومن أسباب التقصير : الاستكثار من معاصى الله عزّ وجلّ ، فإذا كان العمر المضروب للرجل مثلا سبعين سنة ، فقد يزيد الله له عليها إذا فعل أسباب الزيادة ، وقد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان ، والكلّ فى كتاب مبين فلا تخالف بين هذه الآية . وبين قوله سبحانه : ﴿ فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [الأعراف : ٣٤] ويؤيد هذا قوله سبحانه : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب ﴾ [الرعد : ٣٩] وقد قدّمنا فى تفسيرها ما يزيد ما ذكرنا هنا وضوحا وبيانا . قرأ الجمهور: ﴿ **ينقص** ﴾ مبنيا للمفعول . وقرأ يعقوب وسلام وروى عن أبى عمرو: « ينقص » مبنيا للفاعل . وقرأ الجمهور : ﴿ **من عمره** ﴾ بضم الميم . وقرأ الحسن والأعرج والزهرى بسكونها ، والإشارة بقوله : ﴿ **إن ذلك** ﴾ إلى ما سبق من الخلق وما بعده : ﴿ **على الله يسير** ﴾ لا يصعب عليه منه شىء ، ولا يعزب عنه كثير، ولا قليل ولا كبير ولا صغير .

ثم ذكر سبحانه نوعًا آخر من بديع صنعه ، وعجيب قدرته فقال : ﴿ **وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج** ﴾ فالمراد بـ ﴿ **البحران** ﴾ : العذب والمالح . فالعذب الفرات : الحلو ، والأجاج : المرّ . والمراد بـ ﴿ **بسائغ شرابه** ﴾ : الذى يسهل انحداره فى الحلق لعذوبته . وقرأ عيسى بن عمر : « سيغ» بتشديد الياء ، وروى تسكينها عنه . وقرأ طلحة وأبو نهيك: « ملح » بفتح الميم ﴿ **ومن كلّ** ﴾ منهما ﴿ **تأكلون لحما طريا** ﴾ وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التى تؤكل ﴿**وتستخرجون حلية تلبسونها**﴾ الظاهر أن المعنى : وتستخرجون منهما حلية تلبسونها. وقال المبرد : إنما تستخرج الحلية من المالح . وروى عن الزجاج أنه قال : إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا ، لا من كل واحد منهما على انفراده ، ورجح النحاس قول المبرّد . ومعنى ﴿ **تلبسونها** ﴾ : تلبسون كل شيء منها بحسبه ، كالخاتم فى الأصبع ، والسوار فى الذراع ، والقلادة فى العنق، والخلخال فى الرجل ، ومما يلبس حلية السلاح الذى يحمل كالسيف والدرع ونحوهما ﴿ **وترى الفلك فيه** ﴾ أى فى كل واحد من البحرين. وقال النحاس : الضمير يعود إلى الماء المالح خاصة، ولولا ذلك لقال : فيهما ﴿ **مواخر** ﴾ يقال: مخرت السفينة تمخر : إذا شقت الماء . فالمعنى : وترى السفن فى البحرين شواقّ للماء بعضها مقبلة. وبعضها مدبرة بريح واحدة . وقد تقدّم الكلام على هذا فى سورة النحل . واللام فى ﴿**لتبتغوا من فضله**﴾ متعلقة بما يدل عليه الكلام السابق ، أى فعل ذلك لتبتغوا أو بمواخر . قال مجاهد : ابتغاء الفضل هو التجارة فى البحر إلى البلدان البعيدة فى مدّة قريبة كما تقدّم فى البقرة ﴿**ولعلكم تشكرون** ﴾ الله على ما أنعم عليكم به من ذلك . قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية : ضرب المثل فى حقّ المؤمن والكافر ، والكفر والإيمان ، فكما لا يستوى البحران كذلك لا يستوى المؤمن والكافر ، ولا الكفر والإيمان .

﴿ **يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ أى يضيف بعض أجزائهما إلى بعض ، فيزيد فى أحدهما بالنقص فى الآخر ، وقد تقدّم تفسيره فى آل عمران وفى مواضع من الكتاب العزيز ﴿**وسخر الشمس والقمر كلّ يجرى لأجل مسمى**﴾ قدّره الله لجريانهما، وهو يوم القيامة. وقيل : هو المدّة التى يقطعان فى مثلها الفلك ، وهو سنة للشمس، وشهر للقمر . وقيل : المراد به : جرى الشمس فى اليوم، والقمر فى الليلة . وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى فى سورة لقمان، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى الفاعل لهذه الأفعال وهو الله سبحانه ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره : ﴿ **الله ربكم له الملك** ﴾ أى هذا الذى من صنعته ما تقدّم : هو الخالق المقدّر والقادر المقتدر المالك للعالم ، والمتصرّف فيه ، ويجوز أن يكون قوله : ﴿ **له الملك** ﴾ جملة مستقلة فى مقابلة قوله : ﴿ **والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير** ﴾ أى لا يقدرون عليه ولا على خلقه. والقطمير: القشرة الرّقيقة التى تكون بين التمرة والنواة ، وتصير على النواة كاللفافة لها . وقال المبرّد : هو شق النواة . وقال قتادة : هو القمع الذى على رأس النواة . قال الجوهرى : ويقال : هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة تنبت منها النخلة .

ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا ينفعون ولا يضرّون فقال : ﴿ **إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم** ﴾ أى إن تستغيثوا بهم فى النوائب لا يسمعوا دعاءكم ؛ لكونها جمادات لا تدرك شيئًا من المدركات ﴿**ولو سمعوا**﴾ على طريقة الفرض، والتقدير: ﴿**ما استجابوا لكم** ﴾ لعجزهم عن ذلك . قال قتادة: المعنى : ولو سمعوا لم ينفعوكم . وقيل : المعنى : **لو**جعلنا لهم سماعا وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع للّه منكم ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتموهم إليه من الكفر ﴿ **ويوم القيامة يكفرون بشرككم** ﴾ أى يتبرؤون من عبادتكم لهم ، ويقولون : ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ [يونس :٢٨] ويجوز أن يرجع : ﴿ **والذين تدعون من دونه**﴾ وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار ، وهم الملائكة والجنّ والشياطين . والمعنى : أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا، وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم ﴿**ولا ينبئك مثل خبير**﴾ أى لا يخبرك مثل من هو خبير بالأشياء عالم بها ، وهو الله سبحانه ، فإنه لا أحد أخبر بخلقه وأقوالهم وأفعالهم منه سبحانه ، وهو الخبير بكنه الأمور وحقائقها .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه، فلا يبقى خلق للّه فى السموات والأرض إلا من شاء الله إلا مات ، ثم يرسل الله من تحت العرش منيا كمنى الرجال ، فتنبت أجسامهم ولحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ **الله الذى أرسل الرياح** ﴾ الآية[1] . وأخرج أبو داود والطيالسى وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى رزين العقيلى قال : قلت : يارسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ قال: « أما مررت بأرض مجدبة ثم مررت بها مخصبة تهتزّ خضراء ؟ » قلت: بلى. قال : « كذلك يحيى الله الموتى ، وكذلك النشور » [2] . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن مسعود قال: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله ، إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا اللّه والله أكبر وتبارك الله، قبض عليهنّ ملك يضمهنّ تحت جناحه ، ثم يصعد بهنّ إلى السماء ، فلا يمرّ بهنّ على جمع من الملائكة إلا استغفر لقائلهنّ حتى يجىء بهنّ وجه الرحمن ، ثم قرأ : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ قال : أداء الفرائض ، فمن ذكر الله فى أداء فرائضه حمل عمله ذكر اللّه فصعد به إلى الله ، ومن ذكر الله ولم يؤدّ فرائضه ردّ كلامه على عمله ، وكان عمله أولى به [3] .

---

(١) ابن جرير ٢٢ / ٧٩ .

(٢) الطيالسى (١٠٨٩) وأحمد ٤/ ١١ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٢٧٤ .

(٣) ابن جرير ٢٢ / ٨٠ والطبرانى (٩١٤٤) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٩٣ : « فيه المسعودى وهو ثقة ولكنه اختلط وبقية رجاله ثقات » وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى في الأسماء والصفات ٢/ ٣٤ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ **وما يعمر من معمر** ﴾ الآية ، قال : يقول : ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرّت له من العمر وقد قضيت له ذلك ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدّرت له لا يزاد عليه ، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ،ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتب له، فذلك قوله:﴿**ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب** ﴾ يقول : كل ذلك فى كتاب عنده . وأخرج أحمد ومسلم وأبو عوانة وابن حبان و الطبرانى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال:قال رسول الله ﷺ : « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ فى الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة ، فيقول : أىّ ربّ ، أشقىّ أم سعيد ؟ أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله ويكتبان ، ثم يكتب عمله ورزقه وأجله وأثره ومصيبته ، ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص »(١) . وأخرج ابن أبى شيبة ومسلم والنسائى وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود قال : قالت أمّ حبيبة : اللهمّ أمتعنى بزوجى النبىّ ، وبأبى أبى سفيان ، وبأخى معاوية ، فقال النبى ﷺ : « إنك سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، ولن يعجل الله شيئًا قبل حله أو يؤخر شيئًا، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب فى النار ، وعذاب فى القبر كان خيرا وأفضل »(٢). وهذه الأحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء ، وأنه يعتلج هو والقضاء ، وبما ورد فى صلة الرحم أنها تزيد فى العمر ، فلا معارضة بين الأدلة كما قدّمنا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما يملكون من قطمير** ﴾ قال : القطمير : القشر ؛ وفى لفظ : الجلد الذى يكون على ظهر النواة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن

---

(١) أحمد ٤/٧ ومسلم فى القدر (٢٦٤٤ / ٢) وابن حبان (٦١٤٤) والطبرانى (٣٠٣٦) .

(٢) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩١٨٨) وأحمد ١/ ٣٩٠ ومسلم فى القدر (٢٦٦٣ / ٣٢) والنسائى فى الكبرى فى اليوم والليلة (١٠٠٩٤) .

قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾ .

ثم ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه ، ومزيد حاجتهم إلى فضله ، فقال : ﴿ **يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله** ﴾ أى المحتاجون إليه فى جميع أمور الدين والدنيا ، فهم الفقراء إليه على الإطلاق ، و﴿ **هو الغنىّ** ﴾ على الإطلاق ﴿ **الحميد** ﴾ أى المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم . ثم ذكر سبحانه نوعا من الأنواع التى يتحقق عندها افتقارهم إليه واستغناؤه عنهم فقال : ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد** ﴾ أى إن يشأ يفنكم ويأت بدلكم بخلق جديد يطيعونه ولا يعصونه، أو يأت بنوع من أنواع الخلق وعالم من العالم غيرما تعرفون ﴿ **وما ذلك** ﴾ إلاذْهاب لكم والإتيان بآخرين ﴿ **على الله بعزيز** ﴾ أى بممتنع ولا متعسر، وقد مضى تفسير هذا فى سورة إبراهيم ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أى نفس وازرة، فحذف الموصوف للعلم به ، ومعنى ﴿**تزر**﴾: تحمل. والمعنى: لا تحمل نفس حمل نفس أخرى، أى إثمها بل كل نفس تحمل وزرها، ولا تخالف هذه الآية قوله : ﴿ وليحملنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت : ١٣] لأنهم إنما حملوا أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم والكل من أوزاهم ، لا من أوزار غيرهم ، ومثل هذا حديث : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[1] فإن الذى سنّ السنة السيئة إنما حمل وزر سنته السيئة ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى . ﴿**وإن تدع مثقلة إلى حملها** ﴾ قال الفراء : أى نفس مثقلة ، قال : وهذا يقع للمذكر والمؤنث . قال الأخفش : أى وإن تدع مثقلة إنسانا إلى حملها ، وهو ذنوبها ﴿ **لا يحمل منه** ﴾ أى من حملها ﴿ **شىء ولو كان ذا قربى** ﴾ أى ولو كان الذى تدعوه ذا قرابة لها ، لم يحمل من حملها شيئًا ، ومعنى الآية : وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفسا أخرى إلى حمل شىء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئًا ، ولو كانت قريبة لها فى النسب ، فكيف بغيرها مما لا قرابة بينها وبين الداعية لها ؟ وقرئ : « ذو قربى » على أن كان تامة ، كقوله : ﴿ وإن كان ذو عسرة ﴾ [البقرة: ٢٨] .

وجملة : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالإنذار، ومعنى ﴿ **يخشون ربهم بالغيب** ﴾ أنهم يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم ، أويخشونه فى الخلوات عن الناس . قال الزجاج : تأويله: أن إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم ، فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار ، كقوله : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ [النازعات : ٤٥] ، وقوله : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ [يس : ١١] . ومعنى ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ : أنهم احتفلوا بأمرها ، ولم

---

(١) أحمد ٤/٣٥٧ ومسلم فى الزكاة (١٠١٧ / ٦٩) والنسائى ٥/٧٥ ــ ٧٧ وابن ماجة فى المقدمة (٢٠٣) كلهم عن جرير بن عبد الله .

يشتغلوا عنها بشيء مما يلهيهم. ﴿ **ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه** ﴾ التزكى : التطهر من أدناس الشرك والفواحش ، والمعنى : أن من تطهر بترك المعاصى واستكثر من العمل الصالح فإنما يتطهر لنفسه ؛ لأن نفع ذلك مختص به كما أن وزر من تدنس لا يكون إلا عليه لا على غيره . قرأ الجمهور : ﴿ **ومن تزكى فإنما يتزكى** ﴾ وقرأ أبو عمرو: « فإنما يزكى » بإدغام التاء فى الزاى . وقرأ ابن مسعود وطلحة : « ومن ازكى فإنما يزكى » . ﴿ **وإلى الله المصير** ﴾ لا إلى غيره ، ذكر سبحانه أوّلا أنه لا يحمل أحد ذنب أحد ، ثم ذكر ثانيا: أن المذنب إن دعا غيره ولو كان من قرابته إلى حمل شيء من ذنوبه لا يحمله ، ثم ذكر ثالثا : أن ثواب الطاعة مختصّ بفاعلها ليس لغيره منه شيء.

ثم ضرب مثلا للمؤمن والكافر فقال : ﴿ **وما يستوى الأعمى** ﴾ أى المسلوب حاسة البصر ﴿ **والبصير** ﴾ الذى له ملكة البصر ، فشبه الكافر بالأعمى ، وشبه المؤمن بالبصير . ﴿ **ولا الظلمات ولا النور** ﴾ أى ولا تستوى الظلمات ولا النور ، فشبه الباطل بالظلمات ، وشبه الحق بالنور . قال الأخفش : و « لا » فى قوله : ﴿ **ولا النور** ﴾، ﴿ **ولا الحرور** ﴾ زائدة ، والتقدير وما يستوى الظلمات والنور ولا الظلّ والحرور . والحرور : شدّة حرّ الشمس . قال الأخفش : والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل ، وقيل : عكسه . وقال رؤبة بن العجاج : الحرور يكون بالليل خاصة، والسموم يكون بالنهار خاصة . وقال الفراء : السموم لا يكون إلا بالنهار ، والحرور يكون فيهما . قال النحاس : وهذا أصح . وقال قطرب : الحرور الحرّ ، والظلّ البرد ، والمعنى : أنه لا يستوى الظلّ الذى لا حرّ فيه ولا أذى ، والحرّ الذى يؤذى. قيل : أراد الثواب والعقاب ، وسمى الحرّ حرورا ، مبالغة فى شدّة الحرّ ؛ لأن زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى . وقال الكلبى: أراد بالظلّ : الجنة ، وبالحرور : النار. وقال عطاء : يعنى ظلّ الليل وشمس النهار . قيل : إنما جمع الظلمات وأفرد النور لتعدّد فنون الباطل واتحاد الحقّ .

ثم ذكر سبحانه تمثيلا آخر للمؤمن والكافر فقال : ﴿ **وما يستوى الأحياء ولا الأموات** ﴾ فشبه المؤمنين بالأحياء ، وشبه الكافرين بالأموات . وقيل : أراد تمثيل العلماء والجهلة . وقال ابن قتيبة : الأحياء : العقلاء ، والأموات : الجهال . قال قتادة : هذه كلها أمثال ، أى كما لا تستوى هذه الأشياء كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن ﴿ **إن الله يسمع من يشاء** ﴾ أن يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته ووفقهم لطاعته ﴿ **وما أنت بمسمع من فى القبور** ﴾ يعنى : الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ، أى كما لا تسمع من مات كذلك لا تسمع من مات قلبه ، قرأ الجمهور بتنوين: ﴿ **مسمع** ﴾ وقطعه عن الإضافة . وقرأ الحسن وعيسى الثقفى وعمرو بن ميمون بإضافته . ﴿ **إن أنت إلا نذير** ﴾ أى ما أنت إلا رسول منذر ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ ، والهدى والضلالة بيد الله عزّ وجلّ . ﴿ **إنا أرسلناك بالحقّ** ﴾ يجوز أن يكون : ﴿ **بالحق** ﴾ فى محل نصب على الحال من الفاعل ، أى محقين ، أو من المفعول ، أى محقًّا ، أو نعت لمصدر

محذوف ، أى إرسالا ملتبسا بالحقّ ، أو هو متعلق بـ﴿ **بشيرا** ﴾ أى بشيراً بالوعد الحقّ ونذيرا بالوعد الحقّ. والأولى أن يكون نعتا للمصدر المحذوف، ويكون معنى ﴿ **بشيراً** ﴾ : بشيراً لأهل الطاعة ونذيرا لأهل المعصية ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ أى ما من أمة من الأمم الماضية إلا مضى فيها نذير من الأنبياء ينذرها، واقتصر على ذكر النذير دون البشير؛ لأنه ألصق بالمقام.

ثم سلى نبيه ﷺ وعزاه ، فقال : ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم** ﴾ أى كذب من قبلهم من الأمم الماضية أنبياءهم ﴿ **جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى بالمعجزات الواضحة والدلالات الظاهرة ﴿ **وبالزبر** ﴾ أى الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم ﴿**وبالكتاب المنير**﴾ كالتوراة والإنجيل . قيل : الكتاب المنير: داخل تحت الزبر وتحت البينات ، والعطف لتغاير المفهومات ، وإن كانت متحدة فى الصدق ، والأولى تخصيص البينات بالمعجزات ، والزبر بالكتب التى فيها مواعظ ، والكتاب بما فيه شرائع وأحكام ﴿ **ثم أخذت الذين كفروا** ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير يفيد التصريح بذمهم بما فى حيز الصلة ، ويشعر بعلة الأخذ ﴿ **فكيف كان نكير** ﴾ أى فكيف كان نكيرى عليهم وعقوبتى لهم ؟ وقرأ ورش عن نافع وشيبة بإثبات الياء فى : ﴿ **نكير** ﴾ وصلا لاوقفا ، وقد مضى بيان معنى هذا قريبا .

وقد أخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة عن عمرو بن الأحوص ؛ أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع : « ألا لايجنى جان إلا على نفسه ، لا يجنى والد على ولده ولا مولود على والده » (١) . وأخرج سعيد بن منصور وأبو داود والترمذى والنسائى وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبى رمثة قال : انطلقت مع أبى نحو رسول الله ﷺ ، فلما رأيته قال لأبى : « ابنك هذا ؟ » قال : إى وربّ الكعبة ، قال : « أما أنه لا يجنى عليك ولا تجنى عليه » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء** ﴾ قال: يكون عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئًا .

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ**

---

(١) أحمد ٣/ ٤٢٦ والترمذى فى التفسير (٣٠٨٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٢٣٣) وابن ماجة فى المناسك (٣٠٥٥) .

(٢) أبو داود فى الديات (٤٤٩٥) والنسائى ٨/ ٥٣ والبيهقى ٤/ ٧٣ .

مُصدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾ .

ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته الباهرة وخلقا من مخلوقاته البديعة فقال : ﴿ **ألم تر** ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكلّ من يصلح له ﴿ **أن الله أنزل من السماء ماء** ﴾ وهذه الرؤية هى القلبية، أى ألم تعلم، وأن واسمها وخبرها سدّت مسدّ المفعولين ﴿ **فأخرجنا به** ﴾ أى بالماء ، والنكتة فى هذا الالتفات ؛ إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع ، وانتصاب ﴿**مختلفا ألوانها** ﴾ على الوصف لثمرات ، والمراد بالألوان : الأجناس والأصناف ، أى بعضها أبيض ، وبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر ، وبعضها أسود ﴿**ومن الجبال جدد**﴾ الجدد : جمع جدة ، وهى الطريق. قال الأخفش : ولو كان جمع جديد لقال : جدد بضم الجيم والدال، نحو سرير وسرر . قال زهير :

كأنه أسفع الخدين ذو جدد ... طاوٍ ويرتع بعد الصيف أحيانا

وقيل : الجدد : القطع ، مأخوذ من جددت الشىء : إذا قطعته ، حكاه ابن بحر .قال الجوهرى : الجدة : الخطة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه ، والجدة : الطريقة ، والجمع جدد وجدائد ، ومن ذلك قول أبى ذؤيب :

جون السراة له جدائد أربع

قال المبرد : جدد : طرائق وخطوط . قال الواحدى : ونحو هذا قال المفسرون فى تفسير الجدد . وقال الفراء : هى الطرق تكون فى الجبال كالعروق بيض وسود وحمر واحدها جدة . والمعنى : أن الله سبحانه أخبر عن جدد الجبال، وهى طرائقها ، أو الخطوط التى فيها بأن لون بعضها البياض ولون بعضها الحمرة ، وهو معنى قوله : ﴿ **بيض وحمر مختلف ألوانها** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **جدد** ﴾ بضم الجيم وفتح الدال . وقرأ الزهرى بضمهما، جمع جديدة ، وروى عنه أنه قرأ بفتحهما وردّها أبو حاتم وصححها غيره وقال : الجدد : الطريق الواضح البين ﴿**وغرابيب سود** ﴾ الغربيب : الشديد الذى يشبه لونه لون الغراب . قال الجوهرى : تقول هذا أسود غربيب ، أى شديد السواد ، وإذا قلت: غرابيب سود، جعلت السود بدلا من غرابيب . قال الفراء : فى الكلام تقديم وتأخير، تقديره : وسود غرابيب ؛ لأنه يقال : أسود غربيب ، وقلّ ما يقال : غربيب أسود ، وقوله : ﴿ **مختلف ألوانها** ﴾ صفة لجدد ، وقوله : ﴿**وغرابيب**﴾ معطوف على جدد على معنى : ومن الجبال جدد بيض وحمر ومن الجبال غرابيب على لون

واحد وهو السواد ، أو على حمر على معنى : ومن الجبال جدد بيض وحمر وسود . وقيل : معطوف على بيض ، ولابدّ من تقدير مضاف محذوف قبل جدد ، أى ومن الجبال ذو جدد ؛ لأن الجدد إنما هى فى ألوان بعضها .

﴿ **ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه** ﴾ قوله : ﴿ **مختلف** ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى ومنهم صنف ، أو نوع أو بعض مختلف ألوانه بالحمرة والسواد والبياض والخضرة والصفرة . قال الفراء : أى خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات والجبال ، وإنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان فى هذه الأشياء ؛ لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله وبديع صنعه ، ومعنى ﴿ **كذلك** ﴾ : أى مختلفًا مثل ذلك الاختلاف ، وهو صفة لمصدر محذوف ، والتقدير : مختلف ألوانه اختلافًا كائنًا كذلك ، أى كاختلاف الجبال والثمار . وقرأ الزهرى : «والدواب » بتخفيف الباء . وقرأ ابن السميقع : « ألوانها » . وقيل : إن قوله : ﴿ **كذلك** ﴾ متعلق بما بعده ، أى مثل ذلك المطر ، والاعتبار فى مخلوقات الله واختلاف ألوانها يخشى الله من عباده العلماء ، وهذا اختاره ابن عطية ، وهو مردود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها ، والراجح الوجه الأوّل ، والوقف على : ﴿ **كذلك** ﴾ تامّ . ثم استؤنف الكلام وأخبر سبحانه بقوله : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ أو هو من تتمة قوله : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ على معنى : إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به ، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة ، وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عين فى هذه الآية أهل خشيته ، وتعظيم قدرته وهم العلماء به. قال مجاهد: إنما العالم من خشى الله عزّ وجلّ . وقال مسروق: كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا ، فمن كان أعلم بالله ،كان أخشاهم له . قال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم . وقال الشعبى : العالم من خاف اللّه . ووجه تقديم المفعول : أن المقام مقام حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر . وقرأ عمر بن عبد العزيز برفع الاسم الشريف ونصب العلماء ، ورويت هذه القراءة عن أبى حنيفة . قال فى الكشاف : الخشية فى هذه القراءة استعارة، والمعنى : أنه يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس . وجملة : ﴿ **إن الله عزيز غفور** ﴾ تعليل لوجوب الخشية ؛ لدلالته على أنه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده.

﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله** ﴾ أى يستمرّون على تلاوته ويداومونها . والكتاب : هو القرآن الكريم ، ولا وجه لما قيل: إن المراد به :جنس كتب الله ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ أى فعلوها فى أوقاتها مع كمال أركانها وأذكارها ﴿**وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية**﴾ فيه حثّ على الإنفاق كيف ما تهيأ فإن تهيأ سرا فهو أفضل وإلا فعلانية ، ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، ويمكن أن يراد بالسرّ: صدقة النفل ، وبالعلانية :صدقة الفرض ، وجملة : ﴿ **يرجون تجارة لن تبور** ﴾ فى محل رفع على خبرية إنّ ،كما قال ثعلب وغيره ، والمراد بالتجارة : ثواب الطاعة ، ومعنى ﴿**لن تبور**﴾: لن تكسد ولن تهلك ، وهى صفة للتجارة . والإخبار برجائهم لثواب ما عملوا ، بمنزلة

الوعد بحصول مرجوهم . واللام فى : ﴿ **ليوفيهم أجورهم** ﴾ متعلق بلن تبور على معنى : أنها لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجور أعمالهم الصالحة ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ [النساء : ١٧٣] : وقيل : إن اللام متعلقة بمحذوف دلّ عليه السياق . أى فعلوا ذلك ليوفهم، ومعنى ﴿**ويزيدهم من فضله**﴾ : أنه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التى هى جزاء أعمالهم ، وجملة : ﴿ **إنه غفور شكور** ﴾ تعليل لما ذكر من التوفية والزيادة ، أى غفور لذنوبهم شكور لطاعتهم . وقيل : إن هذه الجملة هى خبر إنّ ، وتكون جملة : يرجون فى محل نصب على الحال ، والأوّل أولى .

﴿ **والذى أوحينا إليك من الكتاب** ﴾ يعنى : القرآن . وقيل : اللوح المحفوظ على أن «من» تبعيضية أو ابتدائية ، وجملة : ﴿ **هو الحق** ﴾ خبر الموصول ﴿ **ومصدقا لما بين يديه** ﴾ منتصب على الحال ، أى موافقا لما تقدمه من الكتب ﴿ **إن الله بعباده لخبير بصير** ﴾ أى محيط بجميع أمورهم . ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ المفعول الأوّل لأورثنا : الموصول ، والمفعول الثانى : الكتاب ، وإنما قدّم المفعول الثانى ؛ لقصد التشريف والتعظيم للكتاب ، والمعنى : ثم أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتاب ، وهو القرآن ، أى قضينا وقدرنا بأن نورث العلماء من أمتك يامحمد هذا الكتاب الذى أنزلناه عليك ، ومعنى اصطفائهم : اختيارهم واستخلاصهم ، ولا شك أن علماء هذه الأمة من الصحابة فمن بعدهم ، قد شرفهم الله على سائر العباد وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء وسيد ولد آدم . قال مقاتل : يعنى قرآن محمد جعلناه ينتهى إلى الذين اصطفينا من عبادنا . وقيل: إن المعنى : أورثناه من الأمم السالفة، أى أخرناه عنهم وأعطيناه الذين اصطفيناه ، والأوّل أولى . ثم قسم سبحانه هؤلاء الذى أورثهم كتابه واصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام فقال : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية ؛ لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلك المقسم وهو من اصطفاهم من العباد ، فكيف يكون من اصطفاه الله ظالما لنفسه ؟ فقيل: إن التقسيم هو راجع إلى العباد ، فمن عبادنا ، ظالم لنفسه وهو الكافر ، ويكون ضمير ﴿ **يدخلونها** ﴾ عائد إلى المقتصد والسابق. وقيل : المراد بالظالم لنفسه : هو المقصر فى العمل به وهو المرجأ لأمر الله ، وليس من ضرورة ورثة الكتاب مراعاته حقّ رعايته ، لقوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ [الأعراف : ١٦٩] وهذا فيه نظر؛ لأن ظلم النفس لايناسب الاصطفاء. وقيل : الظالم لنفسه : هو الذى عمل الصغائر، وقد روى هذا القول عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبى الدرداء وعائشة ، وهذا هو الراجح ؛ لأن عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء ، ولا يمنع دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة ، يحلون فيها من أساور من ذهب إلى آخر ما سيأتى . ووجه كونه ظالما لنفسه : أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له ، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظا عظيما ، وقيل : الظالم لنفسه : هو صاحب الكبائر .

وقد اختلف السلف فى تفسير السابق والمقتصد ، فقال عكرمة وقتادة والضحاك : إن المقتصد :المؤمن العاصى، والسابق : التقىّ على الإطلاق ، وبه قال الفراء ، وقال مجاهد فى تفسير الآية : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ : أصحاب المشأمة، ﴿ **ومنهم مقتصد** ﴾: أصحاب الميمنة ﴿ **ومنهم سابق بالخيرات** ﴾ : السابقون من الناس كلهم . وقال المبرد : إن المقتصد: هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها . وقال الحسن : الظالم :الذى ترجح سيئاته على حسناته ، والمقتصد : الذى استوت حسناته وسيئاته ، والسابق : من رجحت حسناته على سيئاته . وقال مقاتل : الظالم لنفسه : أصحاب الكبائر من أهل التوحيد ، والمقتصد : الذى لم يصب كبيرة ، والسابق : الذى سبق إلى الأعمال الصالحة ، وحكى النحاس أن الظالم : صاحب الكبائر . والمقتصد : الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته ، فتكون جنات عدن يدخلونها للذين سبقوا بالخيرات لا غير ، قال : وهذا قول جماعة من أهل النظر ؛ لأن الضمير فى حقيقة النظر لما يليه أولى . وقال الضحاك : فيهم ظالم لنفسه ، أى من ذريتهم ظالم لنفسه . وقال سهل بن عبد الله : السابق : العالم ، والمقتصد : المتعلم ، والظالم لنفسه : الجاهل . وقال ذو النون المصرى : الظالم لنفسه: الذاكر لله بلسانه فقط ، والمقتصد : الذاكر بقلبه ، والسابق : الذى لا ينساه. وقال الأنطاكى : الظالم: صاحب الأقوال ، والمقتصد : صاحب الأفعال ، والسابق : صاحب الأحوال . وقال ابن عطاء : الظالم : الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد : الذى يحب الله من أجل العقبى ، والسابق : الذى أسقط مراده بمراد الحقّ . وقيل : الظالم : الذى يعبد الله خوفًا من النار ، والمقتصدّ : الذى يعبده طمعا فى الجنة ، والسابق : الذى يعبده لا لسبب . وقيل : الظالم : الذى يحبّ نفسه ، والمقتصد : الذى يحبّ دينه ، والسابق: الذى يحبّ ربه. وقيل: الظالم : الذى ينتصف ولا ينصف ، والمقتصد : الذى ينتصف وينصف ، والسابق : الذى ينصف ولا ينتصف، وقد ذكر الثعلبى وغيره أقوالا كثيرة ، ولا شك أن المعانى اللغوية للظالم والمقتصد والسابق معروفة ، وهو يصدق على الظلم للنفس بمجرّد إحرامها للحظ وتفويت ما هو خير لها ، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوّتها من الثواب ، وإن كان قائما بما أوجب الله عليه تاركا لما نهاه الله عنه ، فهو من هذه الحيثية ممن اصطفاه الله ومن أهل الجنة فلا إشكال فى الآية ، ومن هذا قول آدم: ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقول يونس: ﴿ إنى كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. ومعنى المقتصد: هو من يتوسط فى أمر الدين ، ولا يميل إلى جانب الإفراط ولا إلى جانب التفريط، وهذا من أهل الجنة ، وأما السابق : فهو الذى سبق غيره فى أمور الدين ، وهو خير الثلاثة.

وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد ، وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه والسابق أفضل منهما ، فقيل : إن التقديم لا يقتضى التشريف ،كما فى قوله : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ [الحشر : ٢٠] ونحوها من الآيات القرآنية التى فيها تقديم أهل الشرّ على أهل الخير وتقديم المفضولين على الفاضلين . وقيل: وجه التقديم هنا:

أن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصى قليل ، والسابقين بالنسبة إلى الفريقين أقلّ قليل ، فقدّم الأكثر على الأقلّ ، والأوّل أولى فإن الكثرة بمجرّدها لا تقتضى تقديم الذكر ، وقد قيل فى وجه التقديم غير ما ذكرنا مما لاحاجة إلى التطويل به .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى توريث الكتاب والاصطفاء ، وقيل : إلى السبق بالخيرات ، والأوّل أولى ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿**هو الفضل الكبير**﴾ أى الفضل الذى لا يقادر قدره . وارتفاع ﴿ **جنات عدن** ﴾ على أنها مبتدأ وما بعدها خبرها ، أو على البدل من الفضل ؛ لأنه لما كان هو السبب فى نيل الثواب نزل منزلة المسبب . وعلى هذا فتكون جملة : ﴿ **يدخلونها** ﴾ مستأنفة وقد قدّمنا أن الضمير فى يدخلونها يعود إلى الأصناف الثلاثة ، فلا وجه لقصره على الصنف الأخير ، وقرأ زرّ بن حبيش والترمذى : «جنة» بالإفراد ، وقرأ الجحدرى : «جنات» بالنصب على الاشتغال ، وجوّز أبو البقاء أن تكون جنات خبراً ثانيا لاسم الإشارة ، وقرأ أبو عمرو : «يدخلونها» على البناء للمفعول ، وقوله : ﴿ **يحلون** ﴾ خبر ثان لجنات عدن ، أو حال مقدّرة ، وهو من حليت المرأة فهى حال ، وفيه إشارة إلى سرعة الدخول ؛ فإن فى تحليتهم خارج الجنة تأخيراً للدخول ، فلما قال : ﴿ **يحلون فيها** ﴾ أشار أن دخولهم على وجه السرعة ﴿ **من أساور من ذهب** ﴾ «من» الأولى تبعيضية ، والثانية بيانية ، أى يحلون بعض أساور كائنة من ذهب ، والأساور جمع أسورة جمع سوار ، وانتصاب ﴿ **لؤلؤا** ﴾ بالعطف على محل ﴿**من أساور**﴾ وقرئ بالجرّ عطفا على ذهب ﴿ **ولباسهم فيها حرير** ﴾ قد تقدّم تفسير الآية مستوفى فى سورة الحج .

﴿**وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن**﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **الحزن** ﴾ بفتحتين . وقرأ جناح ابن حبيش بضمّ الحاء وسكون الزاى . والمعنى : أنهم يقولون هذه المقالة إذا دخلوا الجنة . قال قتادة : حزن الموت . وقال عكرمة : حزن السيئات والذنوب وخوف ردّ الطاعات . وقال القاسم : حزن زوال النعم وخوف العاقبة . وقيل : حزن أهوال يوم القيامة . وقال الكلبى : ما كان يحزنهم فى الدنيا من أمر يوم القيامة . وقال سعيد بن جبير : همّ الخبز فى الدنيا ، وقيل : هم المعيشة . وقال الزجاج : أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو معاد وهذه أرجح الأقوال ، فإن الدنيا وإن بلغ نعيمها أى مبلغ(١) لا تخلو من شوائب ونوائب تكثر لأجلها الأحزان ، وخصوصًا أهل الإيمان ، فإنهم لا يزالون وجلين من عذاب الله خائفين من عقابه ، مضطربى القلوب فى كل حين ، هل تقبل أعمالهم أو تردّ ؟ حذرين من عاقبة السوء وخاتمة الشرّ ، ثم لا تزال همومهم وأحزانهم حتى يدخلون الجنة . وأما أهل العصيان : فهم وإن نفس عن خناقهم قليلا فى حياة الدنيا التى هى دار الغرور ، وتناسوا دار القرار يوما من دهرهم فلابدّ أن يشتدّ وجلهم وتعظم مصيبتهم ، وتغلى مراجل أحزانهم إذا شارفوا الموت وقربوا من منازل الآخرة ، ثم إذا قبضت أرواحهم ولاح لهم ما يسوؤهم من جزاء أعمالهم وازدادوا غما وحزنا فإن تفضل الله عليهم بالمغفرة وأدخلهم الجنة فقد أذهب عنهم أحزانهم وأزال غمومهم وهمومهم ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ أى غفور

(١) فى المطبوعة : « بلغ » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

لمن عصاه ، شكور لمن أطاعه . ﴿ **الذى أحلنا دار المقامة من فضله** ﴾ أى دار الإقامة التى يقام فيها أبدًا ولا ينتقل عنها تفضلا منه ورحمة. ﴿ **لا يمسنا فيها نصب** ﴾ أى لا يصيبنا فى الجنة عناء ولا تعب ولا مشقة ﴿ **ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾ وهو الإعياء من التعب ، والكلال من النصب .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثمرات مختلفا ألوانها** ﴾ قال: الأبيض والأحمر والأسود، وفى قوله: ﴿**ومن الجبال جدد**﴾ قال: طرائق ﴿ **بيض** ﴾ يعنى: الألوان. وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الغربيب: الأسود الشديد السواد . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **ومن الجبال جدد** ﴾ قال: طرائق تكون فى الجبل بيض ﴿**وحمر**﴾ فتلك الجدد ﴿**وغرابيب سود**﴾ قال : جبال سود ﴿ **ومن الناس والدوّاب والأنعام**﴾ قال: ﴿ **كذلك** ﴾ اختلاف الناس والدوّاب والأنعام كاختلاف الجبال، ثم قال : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ قال : فصل لما قبلها . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ قال : العلماء بالله الذين يخافونه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير. وأخرج ابن أبى حاتم وابن عدّى عن ابن مسعود قال: ليس العلم من كثرة الحديث ، ولكن العلم من الخشية . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد والطبرانى عنه قال : كفى بخشية الله علما ، وكفى باغترار بالله جهلا . وأخرج أحمد فى الزهد عنه أيضًا قال : ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية . وأخرج ابن أبى شيبة عن حذيفة قال : بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله .

وأخرج عبد الغنى بن سعيد الثقفى فى تفسيره عن ابن عباس أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف نزلت فيه: ﴿**إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة** ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا**﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وأخرج الطيالسى وأحمد وعبد بن حميد، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات**﴾ قال: « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم يدخلون الجنة»(١). وفى إسناده رجلان مجهولان. قال الإمام أحمد فى مسنده قال: -حدثنا شعبة عن الوليد بن العيزار، أنه سمع رجلا من ثقيف يحدّث عن رجل من كنانة عن أبى سعيد . وأخرج الفريابى وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله: ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم**

(١) أحمد ٣/٧٨ والترمذى فى التفسير (٣٢٢٥) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٢٢/ ٩٠ .

ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ فأما الذين سبقوا، فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب. وأما الذين اقتصدوا، فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا، وأما الذين ظلموا أنفسهم ،فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿**الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إنّ ربنا لغفور شكور﴾** »[1] إلى آخر الآية . وقال البيهقى: إذا كثرت روايات فى حديث ظهر أن للحديث أصلا .أ . هـ، وفى إسناد أحمد: محمد بن إسحاق ، وفى إسناد ابن أبى حاتم :رجل مجهول ؛ لأنه رواه من طريق الأعمش عن رجل عن أبى ثابت عن أبى الدرداء ، ورواه ابن جرير عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت .

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن عوف بن مالك عن رسول ﷺ قال : « أمتى ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حسابا يسيرًا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحصون ويكشفون ثم تأتى الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون: لا إله إلا الله وحده،فيقول الله: أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل التكذيب، وهى التى قال الله: ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم﴾ [العنكبوت : ١٣] وتصديقها فى التى ذكر فى الملائكة. قال الله تعالى: ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ فجعلهم ثلاثة أفواج ؛ فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذى يكشف ويمحص،ومنهم مقتصد،وهو الذى يحاسب حسابا يسيرا. ومنهم سابق بالخيرات، فهو الذى يلج الجنة بغير حساب ولاعذاب بإذن الله يدخلونها جميعا[2]. قال ابن كثير بعد ذكر هذا الحديث : غريب جدا . أ . هـ . وهذه الأحاديث يقوّى بعضها بعضا ويجب المصير إليها ، ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر ، ويؤيدها ما أخرجه الطبرانى وابن مردويه، والبيهقى فى البعث عن أسامة بن زيد ﴿**فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ الآية قال : قال رسول الله ﷺ : «كلهم من هذه الأمة، وكلهم فى الجنة»[3] وما أخرجه الطيالسى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط، والحاكم وابن مردويه عن عقبة بن صهبان قال : قلت لعائشة : أرأيت قول الله: ﴿ **ثم أورثنا الكتاب** ﴾ الآية ، قالت : أما السابق ، فمن مضى فى حياة رسول الله ﷺ فشهد له بالجنة. وأما المقتصد فمن تبع آثارهم ، فعمل بمثل عملهم حتى لحق بهم . وأما الظالم لنفسه ، فمثلى ومثلك ومن اتبعنا ، وكل فى الجنة . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا، وثلث يجيؤون بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا ، فيقول الربّ : أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى ، ثم قرأ : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب** ﴾ الآية .

---

(١) أحمد ٥/ ١٩٤ وابن جرير ٢٢/ ٩٠ والحاكم ٢/ ٤٢٦ وقال : « اختلفت الروايات عن الأعمش فى إسناد هذا الحديث ، ووافقه الذهبى » .

(٢) الطبرانى ١٨/ ٧٩ (١٤٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٩ : « فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان وضعفه جماعة : وبقية رجاله ثقات » . وقال ابن كثير ٥/ ٥٨٥ : « غريب جدًا » .

(٣) الطبرانى (٤١٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٩ : « فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، وهو سيئ الحفظ » .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر، والبيهقى فى البعث عن عمر بن الخطاب؛ أنه كان إذا نزع بهذه الآية: ﴿ **ثم أورثنا الكتاب** ﴾ قال: ألا إن سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له . وأخرجه العقيلى وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث من وجه آخر عنه مرفوعا. وأخرجه ابن النجار من حديث أنس مرفوعا. وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان أنه نزع بهذه الآية ، ثم قال : ألا إن سابقنا: أهل جهادنا، ألا وإن مقتصدنا: أهل حضرنا، ألا وإن ظالمنا: أهل بدونا. وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقى فى البعث عن البراء بن عازب فى قوله: ﴿**فمنهم ظالم لنفسه**﴾ الآية، قال : أشهد على الله أنه يدخلهم جميعا الجنة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ قال : « كلهم ناج وهى هذه الأمة». وأخرج الفريانى وعبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال: هى مثل التى فى الواقعة: و﴿أصحاب الميمنة ﴾ و﴿أصحاب المشأمة ﴾ و ﴿السابقون﴾ [الواقعة: ٨ ـ ١٠] صنفان ناجيان ، وصنف هالك. وأخرج الفريانى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والبيهقى عنه فى قوله : ﴿**فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قال : هو الكافر، والمقتصد : أصحاب اليمين . وهذا المروىّ عنه ـ رضى الله عنه ـ لايطابق ما هو الظاهر من النظم القرآنى ، ولا يوافق ما قدّمنا من الروايات عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث أن ابن عباس سأل كعبا عن هذه الآية ، فقال : نجوا كلهم ، ثم قال : تحاكت مناكبهم وربّ الكعبة ، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم . وقد قدّمنا عن ابن عباس ما يفيد أن الظالم لنفسه من الناجين فتعارضت الأقوال عنه .

وأخرج الترمذى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن النبىّ ﷺ تلا قول الله: ﴿**جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا**﴾ فقال: «إن عليهم التيجان، إن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب»(١). أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وقالوا الحمد لله**﴾ الآية، قال: هم قوم فى الدنيا يخافون الله ويجتهدون له فى العبادة سرًا وعلانية، وفى قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم، فهم خائفون أن لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التى سلفت، فعندها ﴿**قالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور**﴾ غفرلنا العظيم، وشكر لنا القليل من أعمالنا. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عنه فى الآية قال: حزن النار.

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا**

(١) الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٦٢) وقال : « هذا حديث غريب » وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٧ ووافقه الذهبى .

كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ .

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر جزاء عباده الصالحين، ذكر جزاء عباده الطالحين فقال : ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا** ﴾ أى لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا ويستريحوا من العذاب ﴿ **ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ بل ﴿ كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ [النساء : ٥٦] وهذه الآية هى مثل قوله سبحانه : ﴿لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ [الأعلى : ١٣]. قرأ الجمهور : ﴿ **فيموتوا** ﴾ بالنصب جوابا للنفى، وقرأ عيسى بن عمر والحسن بإثبات النون. قال المازنى : على العطف على ﴿ **يقضى** ﴾. وقال ابن عطية : هى قراءة ضعيفة ولا وجه لهذا التضعيف بل هى كقوله : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : ٣٦] . ﴿**كذلك نجزى كلّ كفور**﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى كل من هو مبالغ فى الكفر . وقرأ أبو عمرو : «نجزى» على البناء للمفعول . ﴿ **وهم يصطرخون فيها** ﴾ من الصراخ وهو الصياح ، أى وهم يستغيثون فى النار رافعين أصواتهم ، والصارخ : المستغيث ، ومنه قول الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع ... كان الصراخ له قرع الظنابيب

﴿ **ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذى كنا نعمل** ﴾ أى وهم فيها يصطرخون يقولون : ﴿**ربنا**﴾ إلخ . قال مقاتل : هو أنهم ينادون: ﴿ **ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل** ﴾ من الشرك والمعاصى ، فنجعل الإيمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر ، والطاعة بدل المعصية ، وانتصاب ﴿**صالحا**﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف، أى عملا صالحا،أو صفة لموصوف محذوف، أى نعمل شيئًا صالحا. قيل : وزيادة قوله : ﴿ **غير الذى كنا نعمل** ﴾ للتحسر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم فى الدنيا كانت غير صالحة ، فأجاب الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ، والواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره،و«ما» نكرة موصوفة،أى أو لم نعمركم عمرًا يتمكن من التذكر فيه من تذكر. فقيل: هو ستون سنة. وقيل: أربعون. وقيل: ثمانى عشرة سنة. قال بالأوّل جماعة من الصحابة، وبالثانى الحسن ومسروق وغيرهما. وبالثالث عطاء وقتادة. وقرأ الأعمش : «ما يذكر» بالإدغام: ﴿**وجاءكم النذير**﴾ قال الواحدى : قال جمهور المفسرين : هو النبىّ ﷺ. وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسن بن الفضل والفراء وابن جرير: هو الشيب، ويكون معناه على هذا القول: أو لم نعمركم حتى شبتم. وقيل: هو القرآن. وقيل: الحمى. قال الأزهرى: معناه: أن الحمى رسول الموت، أى كأنها تشعر بقدومه وتنذر بمجيئه ، والشيب نذير أيضًا ؛ لأنه يأتى فى سنّ الاكتهال، وهو علامة لمفارقة سنّ الصبا الذى هو سنّ اللهو واللعب. وقيل: هو موت الأهل والأقارب . وقيل : هو كمال العقل ، وقيل: البلوغ ﴿ **فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾ أى فذوقوا عذاب جهنم؛ لأنكم لم تعتبروا ولم تتعظوا ، فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله ، ويحول بينكم وبينه . قال مقاتل : فذوقوا العذاب فما للمشركين من مانع يمنعهم .

﴿ **إن الله عالم غيب السموات والأرض** ﴾ قرأ الجمهور بإضافة ﴿ **عالم** ﴾ إلى ﴿**غيب**﴾. وقرأ جناح بن حبيش بالتنوين ونصب غيب. والمعنى : أنه عالم بكل شىء ومن ذلك أعمال لا تخفى عليه منها خافية ، فلو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحا ، كما قال سبحانه : ﴿ ولو ردّوا لعادوا لما نهو عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨]. ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ تعليل لما قبله ؛ لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهى أخفى من كل شىء علم ما فوقها بالأولى . وقيل : هذه الجملة مفسرة للجملة الأولى ﴿ **هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض** ﴾ أى جعلكم أمة خالفة لمن قبلها. قال قتادة : خلفا بعد خلف وقرنا بعد قرن، والخلف: هو التالى للمتقدّم. وقيل: جعلكم خلفاءه فى أرضه ﴿ **فمن كفر** ﴾ منكم هذه النعمة ﴿ **فعليه كفره** ﴾ أى عليه ضرر كفره لايتعداه إلى غيره ﴿**ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا** ﴾ أى غضبا وبغضا ﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا** ﴾ أى نقصا وهلاكا. والمعنى: أن الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيدهم إلا المقت ، ولا ينفعهم فى أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا الخسار.

ثم أمره سبحانه أن يوبخهم ويبكتهم فقال : ﴿ **قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله**﴾ أى أخبرونى عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة وعبدتموهم من دون الله، وجملة: ﴿**أرونى**

ماذا خلقوا من الأرض ﴾ بدل اشتمال من أرأيتم ، والمعنى : أخبرونى عن شركائكم ، أرونى أىّ شىء خلقوا من الأرض ؟ وقيل : إن الفعلان، وهما أرأيتم وأرونى، من باب التنازع . وقد أعمل الثانى على ما هو اختيار البصريين ﴿ **أم لهم شرك فى السموات** ﴾ أى أم لهم شركة مع الله فى خلقها أو ملكها أو التصرف فيها حتى يستحقوا بذلك الشركة فى الإلهية ﴿ **أم آتيناهم كتابا** ﴾ أى أم أنزلنا عليهم كتابا بالشركة ﴿ فهم على بينات منه ﴾ أى على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿ **بينة** ﴾ بالتوحيد ، وقرأ الباقون بالجمع. قال مقاتل: يقول: هل أعطينا كفار مكة كتابا ، فهم على بيان منه بأن مع الله شريكا ؟ ثم أضرب سبحانه عن هذا إلى غيره فقال : ﴿ **بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا** ﴾ أى ما يعد الظالمون بعضهم بعضا ، كما يفعله الرؤساء والقادة من المواعيد لأتباعهم إلا غرورا يغرونهم به ويزينونه لهم ، وهو الأباطيل التى تغرّ ولا حقيقة لها . وذلك قولهم : إن هذه الآلهة تنفعهم وتقرّبهم إلى الله ، وتشفع لهم عنده . وقيل : إن الشياطين تعد المشركين بذلك، وقيل : المراد بالوعد الذى يعد بعضهم بعضا : هو أنهم ينصرون على المسلمين ويغلبونهم .

وجملة: ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه ، وبديع صنعه بعد بيان ضعف الأصنام وعدم قدرتها على شىء . وقيل : المعنى : إن شركهم يقتضى زوال السموات والأرض ، كقوله: ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّا . أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ [مريم : ٩٠، ٩١] . ﴿**ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ﴾ أى ما أمسكهما من أحد من بعد إمساكه ، أو من بعد زوالهما ، والجملة سادة مسدّ جواب القسم والشرط ، ومعنى ﴿ **أن تزولا** ﴾ : لئلا تزولا ، أو كراهة أن تزولا . قال الزجاج: المعنى : أن الله يمنع السموات والأرض من أن تزولا ، فلا حاجة إلى التقدير . قال الفرّاء : أى ولو زالتا ما أمسكهما من أحد . قال : وهو مثل قوله : ﴿ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾ [الروم: ٥١] . وقيل: المراد: زوالهما يوم القيامة ، وجملة: ﴿**إنه كان حليما غفورا** ﴾ تعليل لما قبلها من إمساكه تعالى للسموات والأرض .

﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم** ﴾ المراد : قريش ، أقسموا قبل أن يبعث الله محمدًا ﷺ بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، ومعنى ﴿ **من إحدى الأمم** ﴾ : يعنى : المكذبة للرسل ، والنذير : النبىّ ، والهدى : الاستقامة ، وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كان الرسل فى بنى إسرائيل ﴿ **فلما جاءهم** ﴾ ما تمنوه ، وهو رسول الله ﷺ الذى هو أشرف نذير وأكرم مرسل وكان من أنفسهم ﴿ **ما زادهم** ﴾ مجيئه ﴿ **إلا نفورا** ﴾ منهم عنه ، وتباعدا عن إجابته .

﴿ **استكبارا فى الأرض** ﴾ أى ؛ لأجل الاستكبار والعتوّ ولأجل ﴿ **مكر السيئ** ﴾ أى مكر العمل السيئ ، أومكروا المكر السيئ ، والمكر: هو الحيلة والخداع والعمل القبيح ، وأضيف إلى صفته كقوله : مسجد الجامع ، وصلاة الأولى ، وأنث ﴿ **إحدى** ﴾ لكون أمة مؤنثة كما قال

الأخفش . وقيل : المعنى : من إحدى الأمم على العموم . وقيل : من الأمة التى يقال لها : إحدى الأمم تفضيلا لها . قرأ الجمهور: ﴿ **ومكر السيئ** ﴾ بخفض همزة السيئ . وقرأ الأعمش وحمزة بسكونها وصلا. وقد غلّط كثير من النحاة هذه القراءة ، ونزهوا الأعمش على جلالته أن يقرأ بها ، قالوا :و إنما كان يقف بالسكون ، فغلط من روى عنه أنه كان يقرأ بالسكون وصلا ، وتوجيه هذه القراءة ممكن، بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف ، كما فى قول الشاعر:

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

بسكون الباء من أشرب . ومثله قراءة من قرأ : « وما يشعركم » بسكون الراء ، ومثل ذلك قراءة أبى عمرو : « إلى بارئكم » بسكون الهمزة ، وغير ذلك كثير . قال أبو على الفارسى : هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف ، وقرأ ابن مسعود : « ومكرا سيئًا » . ﴿ **ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله** ﴾ لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء . قال الكلبى : يحيق بمعنى : يحيط ، والحوق : الإحاطة ، يقال : حاق به كذا : إذا أحاط به . وهذا هو الظاهر من معنى يحيق فى لغة العرب ، ولكن قطرب فسره هنا بـ « ينزل » ، وأنشد :

وقد رفعوا المنية فاستقلت ذراعا بعد ما كانت تحيق

أى تنزل . ﴿ **فهل ينظرون إلا سنة الأوّلين** ﴾ أى فهل ينتظرون إلا سنة الأوّلين ؟ أى سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ أى لا يقدر أحد أن يبدّل سنة الله التى سنها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلا عنه ﴿**ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾ بأن يحوّل ما جرت به سنة الله من العذاب فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم ، ونفى وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفى وجودهما .

﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ما قبلها وتأكيده ، أى ألم يسيروا فى الأرض فينظروا ما أنزلنا بعاد وثمود ومدين وأمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل ؟ فإن ذلك هو من سنة الله فى المكذبين التى لا تبدّل ولا تحوّل ، وآثار عذابهم وما أنزل الله بهم موجودة فى مساكنهم ظاهرة فى منازلهم و الحال أن أولئك ﴿ **كانوا أشدّ منهم قوّة** ﴾ وأطول أعمارًا وأكثر أموالا وأقوى أبدانا ﴿ **وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض** ﴾ أى ما كان ليسبقه ويفوته من شىء من الأشياء كائنا ما كان فيهما ﴿ **إنه كان عليما قديرا** ﴾ أى كثير العلم وكثير القدرة لا يخفى عليه شىء ولا يصعب عليه أمر . ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا** ﴾ من الذنوب وعملوا من الخطايا ﴿ **ما ترك على ظهرها** ﴾ أى الأرض ﴿ **من دابة** ﴾ من الدوّاب التى تدّب كائنة ما كانت ، أما بنو آدم فلذنوبهم، وأما غيرهم فلشؤم معاصى بنى آدم . وقيل : المراد : ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب من بنى آدم والجنّ ، وقد قال بالأوّل ابن مسعود وقتادة ، وقال بالثانى الكلبى . وقال ابن جريج والأخفش والحسين بن الفضل : أراد بالدابة هنا: الناس وحدهم دون غيرهم ﴿**ولكن يؤخرهم**

إلى أجل مسمى ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ **فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا** ﴾ أى بمن يستحق منهم الثواب ومن يستحق منهم العقاب ، والعامل فى إذا ، هو جاء ، لا بصيرا، وفى هذا تسلية للمؤمنين ووعيد للكافرين .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ قال : ستين سنة . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عنه ؛ أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذى قال الله : ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ » [(١)] وفى إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومى، وفيه مقال . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارى والنسائى والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم، والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعذر الله إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة » [(٢)] . وأخرج عبد بن حميد والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن سهل بن سعد مرفوعا نحوه[(٣)] . وأخرج ابن جرير عن علىّ بن أبى طالب قال : العمر الذى عيرهم الله به ستون سنة . وأخرج الترمذى وابن ماجه والحاكم ، وابن المنذر والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك » [(٤)] . قال الترمذى بعد إخراجه : حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، ثم أخرجه فى موضع آخر من كتاب الزهد وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث أبى صالح عن أبى هريرة ، وقد روى من غير وجه عنه. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال: هو ستّ وأربعون سنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضًا قال : العمر الذى أعذر الله إلى ابن آدم فيه بقوله : ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ أربعون سنة . قال: « ضرب الله له مثلا إن الله تبارك وتعالى لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » [(٥)] . وأخرجه ابن أبى حاتم من

---

(١) ابن جرير ٢٢/ ٩٣ والطبرانى (١١٤١٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٠ : « فيه إبراهيم بن الفضل المخزومى ، وهو ضعيف » والبيهقى فى الشعب (١٠٢٥٤) ط . دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ٤١٧ والبخارى فى الرقاق (٦٤١٩) وابن جرير ٢٢/ ٩٣ وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٧ على شرط البخارى ، وقال الذهبى « بل على شرط البخارى ومسلم » والبيهقى ٣/ ٣٧٠ .

(٣) الطبرانى (٥٩٣٣) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٠٩ :« ورجاله رجال الصحيح » وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٨ على شرط الشيخين وافقه الذهبى .

(٤) الترمذى فى الزهد (٢٣٣١) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجه فى الزهد (٤٢٣٦) وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٧ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٣/ ٣٧٠ .

(٥) أبو يعلى (٦٦٦٩) وابن جرير ٣/ ٦ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٨٨ : « فيه أمية بن شبل ذكره الذهبى فى الميزان ولم يذكر أن أحدًا وإنما ذكر له هذا الحديث فضعفه به » وقال ابن كثير ٥/ ٥٩٤ : « والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع بل من الإسرائيليات المنكرة ؛ فإن موسى ضعفه ، عليه الصلاة والسلام أجل من أن يجوز على الله سبحانه وتعالى النوم » .

طريق عبد الله بن سلام أن موسى قال: ياجبريل، هل ينام ربك؟ فذكر نحوه. وأخرج أبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى عن سعيد بن أبى بردة عن أبيه ، أن موسى . . . فذكر نحوه . وأخرج الفريابى وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إنه كاد الجعل ليعذب فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ: ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم** ﴾ [1] الآية .

(١) الطبرانى (٩٠٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٠ : « فيه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم وهو ضعيف » وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٨، ووافقه الذهبى .

obeikandl.com